



# DISCOURSE STUDIES AND HERMENEUTICS

Teun A. van Dijk

Pompeu Fabra University, Barcelona, Spain



Said BAKKAR (translator)

Es-Semara Multidisciplinary College, Ibn Zohr University


s.bakkar@uiz.ac.ma

<https://orcid.org/0009-0007-3005-528X>



## ABSTRACT

Against the background of an academic development starting in literary studies, also involving ‘encounters’ with hermeneutics, this article argues that the contemporary cross-discipline of Discourse Studies, and hence Critical Discourse Studies, have gone beyond the impressionistic or erudite ‘interpretation’ of (literary) texts, as traditionally practiced in hermeneutics. It is summarized how psychology today accounts for many of the properties of the semantic and pragmatic comprehension of situated text and talk, for instance in terms of mental models. It thus makes explicit processes that are only vaguely characterized in terms of the metaphors of the interpretative ‘Arc’ as presented by Ricoeur. Yet, we have only begun to make explicit the complex processes of discourse comprehension, especially also how structures of discourse are related to broader social, political, historical or cultural macro-contexts. Sophisticated discourse interpretations, also in hermeneutics, may thus provide insights that may be used in future developments of more explicit theories of discourse understanding.



**Keywords:** Cognitive Psychology, Discourse Analysis, Discourse Comprehension, Discourse Studies, Hermeneutics, Interpretation, Mental Models.

ليس من عادتي أن أتحدث عن مساري الأكاديمي في مقالاتي الأكاديمية، ولكن يبدو لي هنا أن نبذة مختصرة ستساعد القارئ على فهم تعليقاتي على ورقة ألان بيل (Allan Bell) الفريدة حول دور الهيرمينوطيقا في دراسات الخطاب الحديثة. حصلت على أول درجة أكاديمية في أمستردام؛ إذ كنت متخصصا في اللغة والأدب الفرنسيين (وبعدها درست مرتين في فرنسا، مرة في عام 1966، ومرة في عام 1969). وتمكنت حينذاك من الاطلاع لأول مرة على المقاربات التقليدية التاريخية والفيلولوجية، وعلى المقاربات الانطباعية والتأويلية للأدب، علاوة على ذلك المدرسة الفرنسية التقليدية المعروفة بـ "شرح النص" (Explication de Texte). وحينما أصبحت طالب دكتوراه زائرا في باريس في عام 1969، شهدت عن كثب تطور البنيوية في اللسانيات والسيمياثيات والشعرية بفضل حضوري لدروس بارط (Barthes) وغريماص (Greimas)، ومناقشاتي مع تودوروف (Todorov) وكريستيفا (Kristeva) - اللذين كان آنذاك ما يزالان باحثين شابيين. ومن ثم، فلا غرابة في أن رسالتي للماجستير، وجزءا من أطروحتي للدكتوراه، ومقالاتي وكتبي الأولى، تناولت موضوعات من قبيل الدلالة البنيوية للشعر (السريالي)، وأسس النظرية الحديثة للأدب. وكنت قد حصلت في هذا الوقت نفسه، في أمستردام على شهادة أخرى؛ إذ كنت ضمن أول طالبين يحصلان على شهادة في قسم الدراسات العامة للأدب (Algemene Literatuurwetenschap) الذي كنت قبلت في أول دفعة فيه. وكان الهدف من إنشاء هذا القسم دراسة الأدب، بصفة عامة، باستعمال طرق نظرية ومقاربات شبيهة بتلك المستخدمة في الدراسات اللسانية العامة للغة، فقرأت لأول مرة في حياتي عن الهيرمينوطيقا أثناء تحضيرتي لهذه الدرجة الجديدة التي تعادل درجة ماجستير في اللسانيات والشعرية. وقد ذكرت هذا في كتابي الأول - الذي كتبت به بالهولندية - عن نظرية الأدب الذي نشرته في عام 1971، كما أشرت إلى هذا الأمر في أطروحة الدكتوراه التي أنجزتها حول نحو النص في عام 1972. وقد تبين لي أن الشعرية الأرسطية وهيرمينوطيقا القرون الوسطى تشكل جزءا من تاريخ نظرية الأدب والدراسات الأدبية العامة.

وأثناء دراستي للأدب في نهاية الستينيات، اشتدت حدة انتقادي للمقاربات التقليدية والانطباعية في الأدب، بما في ذلك نظريات الرواية، والنقد الجديد، وشرح

النص. ولذلك، فقد كنت أرى أن الأولى اتباع إبدالات معرفية أخرى مثل البنيوية الفرنسية، وتخصص السيميائيات الذي كان آنذاك حديثا. وبصفة عامة، كنت أدافع عن كل ما تقدمه اللسانيات الحديثة في دراسة الأدب. ولذلك، أثرت أعمال الشكلايين الروس على الأدب (شك洛夫سكي وآخرون) (Sklovskij et al)، وعلى الحكايات الشعبية الروسية (بروب) (Propp) في أعماله المبكرة، وفي البنيويين الفرنسيين لاحقا (مثل: ليفي شتراوس (Lévi-Strauss)، وبارط، وغريماص، وتودوروف، وغيرهم).

### اللسانيات التوليدية

مع ذلك، وتأثير من اللسانيات التوليدية الناشئة لتشومسكي، ولا سيما الدلالة المعرفية للايكوف (Lakoff) ومكاولي (McCawley) وغيرهم، سرعان ما بدأت في الابتعاد عن المقاربات البنيوية وانتقادها، وهو ما سبب لي معارضة قوية من البنيويين، من أمثال غريماص الذي لم يتفهم، أو بالأحرى لم يتقبل تجرّئي على الدفاع عن الدلالة التوليدية في إحدى ندواته في "مختبر ليفي شتراوس"، وفي إحدى مقالاتي الأولى التي نشرتها في كتاب أشرف على تحريره.

ولكنني سرعان ما بدأت أنأى عن حقل الأدب في السبعينيات باستثناء بعض الأعمال المتفرقة القليلة التي نشرتها فيما بعد (مثلا، مشاركة في كتاب بالهولندية حول تدريس الأدب في المدرسة)، ويظهر هذا الابتعاد شيئا ما في أطروحتي حول نحو النص، ثم بصورة واضحة في كتابي النص والسياق الذي صدر في عام 1977 (والذي كان شكلا نيا صريفا). وعموما، بدأت منذ السبعينيات في التركيز على لسانيات الخطاب (مثلا: الانسجام، والبنيات الماكرو، إلى آخره)، ثم انصرفت إلى ما هو أعم في دراسات الخطاب المتعددة التخصصات، بما في ذلك علم النفس المعرفي لمعالجة الخطاب، ودراسة الأخبار الصحفية، والخطاب العنصري، والأيدولوجيا، والسياق، والسلطة، والمعرفة. ويدخل كل ما اشتغلت عليه منذ ذلك الحين في الدراسات النقدية للخطاب بصفة عامة. ويمكن أن أقول إن هذا بدأ بالضبط منذ عام 1980 وما يزال مستمرا إلى يومنا هذا (لمعرفة المزيد حول أعماله الأولى، يمكن النظر للائحة منشوراتي في موقعي على الأترنت [www.discourses.org](http://www.discourses.org)).

باختصار، يمكن القول إن دراساتي الأولى للأدب والخطاب قد تأثرت باللسانيات البنيوية والتوليدية. وفي ذلك السياق الأكاديمي، كان من المفترض أن يكون وصف الشعر منظماً وواضحاً، بحيث يركز المحلل على بنيات محددة في مستويات مختلفة، ليخلص في النهاية إلى قواعد دقيقة مسؤولة عن "توليد" هذه البنيات (وهذا هو التحليل البنيوي). ولكن افتراضي لإمكانية تعلم الناس لنحو (نصي) يُمكنهم من إنتاج نصوص سليمة وفهمها، جعلني لا أستبعد امتلاك بعضهم لـ "كفاءة أدبية" تتميز بقواعد خاصة لإنتاج البنيات الشعرية والسردية التي نلمسها في النصوص الأدبية.

والحق أن الدراسات الشكلانية للنصوص لم تكن تقبل المقاربات التأويلية في التيار الأدبي التقليدي والهيرمينوطيقا؛ أولاً؛ لأنها تقوم على تحليل يفتقر إلى نسق ومنهجية واضحة تمكن من التثبت من صحة نتائجها. وثانياً؛ لأنها تعتمد في الأساس على موسوعيّة الباحثين الكبار وحسهم الأدبي (Fingerspitzengefühl). والحقيقة أن هذا الاتجاه التقليدي عاجز عن تعليم الطلبة كيفية التحليل (لا يوجد فيه تصنيف ولا مناهج). ولذلك، فمتمهي نبوغ الطالب تقليده للأساتذة الكبار (Great Masters) الذين يكونون قدوة دائماً. وما زلنا، إلى يومنا هذا، نجد هذا التقليد منتشرًا في كثير من الدراسات الأدبية المعاصرة، والفلسفة، واللسانيات. ويدخل ريكور (Ricoeur) - وغيره من الباحثين الفرنسيين المرموقين، مثل دريدا (Derrida)، الذين ينتمون إلى توجهات مختلفة في البحث - في هذا التقليد الذي يمزج بين روعة الأسلوب وأصالة التأويل، ولا سيما في الأعمال الفنية. ونلاحظ أن هؤلاء الباحثين لا يعيرون أي اهتمام للنص والكلام العاديين في الحياة اليومية. ولكنهما صارا في ما بعد موضوعاً أساسياً للبحث في تحليل المحادثة بصفة خاصة، ودراسات الخطاب بصفة عامة. ومن السمات الفارقة لهذه الدراسات الأدبية في الاتجاه التقليدي والهيرمينوطيقا إسهابها في التركيز على الاستعارة بوصفها محورا للتحليل بدلا من بلورة تصورات نظرية متكاملة وواضحة. ولعل أبرز مثال على ذلك ما نجده في الاقتباسات التي قالها ريكور في مقالة ألان بيل، حيث يمكن اختزالها في المفهوم الاستعاري لـ "القوس" التأويلي.

لقد تميزت نهاية الستينيات وبداية السبعينيات بظهور نقاش حول أسس العلوم الاجتماعية والإنسانيات، أو ما عُرف بجدل المنهج (Methodenstreit). وقد قرأنا لليفي شتراوس وبارط في فرنسا، ثم قرأنا لتشومسكي (Chomsky) في

الولايات المتحدة الأمريكية، وباحثين آخرين عديدين، وقرأنا أعمال "بوبر" (Popper) وأطروحات رصينة ومتعدد الأجزاء من البحوث الأساسية الألمانية (Stegmüller et al). والأكد أن اللسانيات البنيوية والتوليدية والشعرية في ذلك الوقت جنحت إلى التحليل الشكلاني على حساب "التأويل" في تقليد ديلثاي (Dilthey)، وهايدغر (Heidegger)، وغادامير (Gadamer). وقد ارتبط أتباع هؤلاء الباحثين التقليديين (من قبيل ياوز (Jauss)) في ألمانيا، في الغالب، بجماعة "الأساتذة الجامعيين" الاستبدادية واليمين المتطرف. ولا يخفى الدور النشط الذي حظي به هايدغر في ألمانيا النازية، والمشاركة السلبية لغادامير. وعلى الرغم من أن ياوز بالتحديد كان عضوا نشطا في الجناح العسكري للحزب النازي (SS)، إلا أنه تمكن من أن يصبح أستاذا جامعيا في مدينة كونستانس الألمانية. ولذلك، لم يكن محض صدفة أن هذه الجامعة التي كانت حديثة التأسيس صارت المعقل الأول الذي دافع عن نحو النص في أواسط الستينيات -بفضل بيتر هارتمان (Peter Hartmann)، وضمت مجموعة لسانيي النص النشيطين الذين اشتغلت معهم، من قبيل: بيتوفي (Petöf)، ورايزر (Rieser) وإيهوي (Ihwe)، وطالبت بالمزيد من الديمقراطية في سياسة الجامعة، وعانت الممارسات العنيفة المعادية للشيوعية (الحظر المهني (Berufsverbot) بألمانيا) (الدولة التي قضيت فيها كثيرا من الوقت في بداية السبعينيات).

ومن ثمة، وبشكل غير متوقع إلى حد ما، أصبحت الشكلانية البنيوية والتوليدية (مثل أعمال تشومسكي السياسية) في لسانيات (النص) والشعرية مرتبطة بالسياسة التقدمية، بينما ظل باحثو الاتجاه الأدبي التقليدي والتأويلي أقرب إلى الأيديولوجيات والممارسات المحافظة. ومن ثم، لم تكن الهيرمينوطيقا -في تاريخي الفكري- مرتبطة بما هو تقليدي وانطباعي في دراسات الأدب والنقد فحسب، بل أيضا بالنزعة السياسية المحافظة. ولا شك أن موقف النقدي من الهيرمينوطيقا متأثر أيضا بهذه التجارب الأكاديمية والاجتماعية والسياسية، ولا سيما في فرنسا وألمانيا.

### من نحو النص إلى الدراسات النقدية للخطاب

بعد عقود من الزمن، أجدني اليوم في غاية التحفظ من الدراسات الشكلانية (البنيوية والتوليدية) للأدب والخطاب، ولا سيما أنها تتجاهل السياقات الاجتماعية-المعرفية والاجتماعية والسياسية للنص والحديث. ولكن هذا لا يعني أنني أود العودة



إلى التأويل الانطباعي الذي لا ينضبط للقواعد؛ إذ ما زلت أرى أن أي دراسة واضحة للخطاب، ومن ثم أيضا أي دراسة نقدية اجتماعية كانت أو سياسية، تحتاج إلى تصور واضح ومنظم للبنيات الشكلية للخطاب، بما في ذلك بنيات المعنى. وعلى الرغم من أن دراسات الخطاب الحديثة تضم العديد من التوجهات البحثية المختلفة من حيث النظريات والمناهج اللسانية والمعرفية والاجتماعية والثقافية والسياسية، إلا أن الوصف والتفسير يطغيان عليها، فلا تعدو أن تكون محصّلتها تقديم قراءات مختلفة لباحثين في سياقات مختلفة، ومن ثم فهي تفتقر إلى ضوابط ومعايير توضح للقراء كيفية فهم النص بأنفسهم. ولعل ما يميز الدراسات الحديثة هو أنها تطوّر نظريات للبنيات والاستراتيجيات تصلح لدراسة جميع أنواع النص والحديث، وتهتم بكيفية إنتاج مستعملي اللغة للخطابات وفهمهم لها، كما تعنى بدراسة علاقة الخطاب بالسياقات التواصلية والاجتماعية والسياسية والثقافية، وتقدم كذلك مجموعة من الآليات المنظمة والواضحة لتحليل هذه الظواهر. ومن ثم، فإن ما يُميز دراسات الخطاب والأدب الحديثة من الاتجاه النقدي الأدبي التقليدي والهيرمينوطيقا هو أن هذين الأخيرين يقتصران على محاولة تقديم فهم معياري للأعمال الفنية وتقويمها.

## حول التأويل

حتى أتمكن من بسط وجهة نظري، لابد لي من التطرق باختصار لمفهوم الهيرمينوطيقا: الفهم أو التأويل (Verstehen). لقد استفدنا كثيرا ممّا يقارب ثلاثين إلى أربعين سنة مضت منذ البدء في استعمال المقاربات البنوية والتوليدية لدراسة لخطاب، مما سمح بتقديم قراءات شكلانية متنوعة (نحوية، وسردية، وحجاجية، وغير ذلك) لبنيات النص والحديث واكتشاف الكثير من الأمور حول الكيفية الحقيقية لإنتاج مستعملي اللغة للخطاب، ولا سيما كيفية استيعابهم وفهمهم له. وما تزال ميادين مثل علم النفس المعرفي والذكاء الاصطناعي وعلوم الأعصاب اليوم تُعين على بلورة نظريات متطورة حول العمليات والتمثيلات الذهنية التي تسهم في معالجة الخطاب والتفاعل (مثل التعليق الموجود في هذا العدد الذي أنجزه ياري Yeari) وفان دين بروك (Van den Broek)). ويفترض أن ينبني أي نوع من أنواع التأويل الأدبي أو الاجتماعي أو السياسي للخطاب بصفة عامة، ولأعمال الفن بصفة خاصة، على هذه العمليات الذهنية لفهم الخطاب. ولذلك، فبدلا من تقديم فهم

أو قراءة مبنية على حدس الخبير أو القارئ العادي كما يحدث في الهيرمينوطيقا، فإننا نحتاج إلى قراءة تصف كيف يعطي مستعملو اللغة المعني (الدلالي) - في مستويات متعددة للبنية- للكلمات والجمل والكلام والفقرات والبنى الخطابية الأكبر وتُفسَّرُ ذلك، وتُظهِرُ كذلك كيف ترتبط هذه التمثيلات الدلالية بنماذج مستعملي اللغة في مستوى الفرد والمعرفة العامة التي تشاركها مجتمعات معرفية.

### نماذج ذهنية

يمكن اليوم، إذا، تحديد تأويل نص أو كلام -أولا وقبل كل شيء- انطلاقا من تمثيلات دلالية؛ إذ هي التي تتأسس على نماذج ذهنية ذاتية لمستعملي اللغة؛ وهذا يعني أن لها تمثيلا في الذاكرة الحَدَّثِيَّة<sup>(1)</sup> للسياق (الأحداث، والأفعال، والأشخاص، إلى غير ذلك) الذي يحيل عليه المتكلم أو الكاتب. ويمكن فهم هذه النماذج الذهنية الهرمية تدريجيا بعمليات معقدة (سمعية، وبصرية، ومعجمية، وتركيبية، ومتعددة الصيغة) في الذاكرة العاملة<sup>(2)</sup>. وقد تشمل هذه النماذج أيضا الآراء والمشاعر المرتبطة بالأحداث موضوع الحديث. ومن ثم، فإن فهم الخطاب مرتبط بطريقة فهم الناس بصفة عامة للمواقف، وكيفية تمثيلهم لتجارهم في النماذج الذهنية التي تتكوّن عادة من الوضع (الزمان، والمكان)، والمشاركين (هوياتهم وأدوارهم وعلاقاتهم)، وحدث أو أحداث وفعل أو أفعال، بالإضافة إلى المقاصد/ الأهداف ومعرفة بالمشاركين. وغالبا ما يعبر الناس عن هذه النماذج بقصص أو أخبار حينما يكون موضوعها أفعالا بشرية مثيرة. ولا تقتصر أهمية هذه النماذج في تفسيرها لعملية الفهم فحسب، بل تتعدى ذلك إلى توضيح كيفية التخطيط للخطاب وإنتاجه، وكذلك طريقة تذكره وتحيينه فيما بعد.

### المعرفة

على الرغم من أن كل نموذج ذهني للخطاب شخصي وفريد، إلا أن هنالك قواسم مشتركة بينها. ويرجع هذا إلى أن هذه النماذج لا تعتمد حصرا على المعلومات الواردة في نص أو حديث فريدين والنماذج الذهنية السابقة (تجارب شخصية، بما في ذلك

(1) هي نوع من أنواع ذاكرتنا طويلة الأمد التي نخزّن فيها أحداث شخصية مرتبطة بإمكانة وأزمنة معينة. (المترجم)

(2) جزء من الذاكرة للتخزين المؤقت وقصير المدى لمعلومات تخدم ملكة المعرفة. (المترجم)



الخطابات السابقة) في ذاكرة السيرة الذاتية لمستعملي اللغة، بل تقوم أيضا على تفعيل أو استحضار المعرفة العامة المشتركة بين مستعملي اللغة في المجتمعات المعرفية التي ينتمي إليها الفرد. ويمكن أن نكَلِّ إلى علم النفس المعرفي للخطاب مهمة توضيح البنيات (الداخلية) لهذه النماذج الذهنية وعمليات بنائها، وعلاقتها مع بنيات المعرفة المعقدة، وكيفية تحيينها للمعلومات الجديدة، وطريقة استعمالها في إنتاج خطاب لاحق وفهمه.

لقد أنجز الباحثون في علم النفس المعرفي كما هائلا من الدراسات حول بنيات المعرفة ودورها في معالجة الخطاب، مثلا في بناء نماذج ذهنية. ولكن نتائجه لا تصدقُ على الأنواع الأخرى من المعرفية المشتركة اجتماعيا مثل الأيديولوجيات. ومع ذلك، فمن الواضح أن الخطاب (نفسه) يُفهم بطريقة مختلفة تماما بحسب موقف السامع أو القارئ الذي قد يكون تقدما أو محافظا، عنصريا أو معاديا للعنصرية، نسويا أو متعصبا للذكور، اشتراكيا أو ليبراليا. ومن ثم، فإن النماذج الدلالية تتأثر هي الأخرى بالأيديولوجيات التي يؤمن بها المتلقون. ويضيف هذا البعد الإيديولوجي جانبا آخر في تفسير الاختلاف في فهم الخطاب كما سنرى لاحقا حينما نتطرق لدور السياق بصفة عامة.

### المعنى الضمني والمعنى الصريح

من الأمور الفارقة عندنا في تفسيرنا لفهم الخطاب أننا ننظر إلى النماذج الذهنية بوصفها أعم من التمثيلات الدلالية للنص (جُمَلُهُ). ومن ثم، يمكننا تشبيه الخطابات في عِظَم معانيها الخفية بالجمال الجليدية؛ فالمعاني الخفية جزء من النماذج الذهنية لمستعملي اللغة التي لا تظهر بوضوح في النص. وفي عبارة أخرى، يعول المتكلم/ الكاتب على القارئ أو السامع في استنباط هذه المعاني الضمنية سواء أكان ذلك من المعاني الواضحة في النص أم بناء على معرفته الشخصية أم المعرفة العامة المشتركة اجتماعيا وثقافيا. وتعد هذه الاستنباطات، على سبيل المثال، ضرورية لبناء انسجام في السياقين الخاص والعام للنص، علاوة على دورها في تقديم افتراضات حول ما يمكن أن يلي في الخطاب والتفاعل.

ونرى أن الفهم الدلالي لا يقتصر على بناء معاني الخطاب المعبر عنها فعليا (الفهم السطحي)، بل يتعلق كذلك ببناء النماذج الذهنية لموضوع الخطاب (الفهم

المرجعي أو المنفتح). ولما كان كل مستعملي اللغة يمثلون نماذجهم الذهنية الخاصة بهم بالاعتماد على تجاربهم الشخصية السابقة (النماذج القديمة كما هي محفوظة في ذاكرة السير-ذاتية)، فإن المتكلمين والسامعين يمتلكون كما هو معروف أيضا -على الأقل إلى حد ما- نماذج ذهنية مختلفة لخطابهم، أي: أفهاما مختلفة. ويمكننا أن نلخص هذه العمليات المركبة في مصطلح الفهم الدلالي؛ أي: التجلي الأولي والبسيط لكل فهم أو تأويل للخطاب بالمفهوم العام، وهذا هو أحدث ما توصل إليه علم النفس الخطاب لحد الآن.

### نماذج السياق

على الرغم مما سبق ذكره، فمن الواضح أن التفسير الذي قدمناه لعملية للفهم يبقى ناقصا؛ إذ إن مستعملي اللغة لا يفهمون الخطاب في عزلة (أو في مختبر)، بل يفهمونه في مواقف تواصلية واجتماعية حقيقية، كما قد يفهم مستعملو اللغة المختلفون (الذي يتميز كل واحد منهم بنموذجه الذهني الخاص للخطاب) الخطاب "نفسه" بطرق مختلفة، وقد يختلف فهم الأشخاص أنفسهم للخطاب الواحد بحسب السياق. ومن ثم، فنحن في حاجة إلى تفسير ما يمكننا تسميته الفهم التداولي.

قد يفهم الكلام الواحد بوصفه وعيدا أو وعدا إذا توافرت شروط الملائمة المرتبطة بالسياق، كما يمكن أن يقرأ الناس النص نفسه تارة بوصفه رواية وأخرى بوصفه كراسة سياسية، وقد يعدونه تثقيفيا أو تضليليا، ولائقا أو وقحا، وما إلى ذلك؛ وكل ذلك بحسب السياق.

إن هذا التفسير الوصفي غير كاف إذا لم نراع السياقات ونوليها أهمية أكبر في علاقتها بالنص والحديث. ومن ثم، فإن شروط الملاءمة المتعلقة بأفعال الكلام هي عادة جزء من هذه السياقات. ولكن هذا ينطبق أيضا -وبصفة عامة- على الأوضاع (الزمان والمكان)، والمشاركين (الهويات، والأدوار، والعلاقات)، والمقاصد/الأهداف، والفعل الاجتماعي الحالي الذي يقع في مستويات متعددة من الخصوصية والعمومية، علاوة على معرفة المشاركين.

نحن لا نفسر الأفعال الكلامية فقط، ولكن نفسر أيضا التعبيرات الإشارية والانعكاسية، وظواهر التحلي بالأدب التي تبرز العلاقات الاجتماعية بين المشاركين،



والإثبات، والأرضية المشتركة والأخبار، وموضوع الجملة وتركيزها، والاقتضاءات، وأنواع الخطاب، بالإضافة إلى العديد من المظاهر التداولية الأخرى للخطاب التي تحدد ملاءمة الخطاب في الموقف التواصلية أو انعكاسيته.

يجب أن نلاحظ أن السياق في حد ذاته ليس مجموعة من الإعدادات الاجتماعية الموضوعية للموقف التواصلية، كما يقول اللسانيون الاجتماعيون، بل هو تحديد ذاتي من كل مشارك لما يراه ملائماً (في لحظة معينة) في ذلك الموقف. ويمكننا أن نستعمل الآن مجدداً المفهوم الأساس "النموذج الذهني"، ولكن ليس لتفسير التمثيل الذاتي للموقف موضوع الحديث كما سبق وفعلنا، بل من أجل التحديد الذاتي للموقف التواصلية الذي يشارك فيه المشاركون فعلياً وآتياً، وذلك لأن نماذج السياق هاته التي يمتلكها مستعملو اللغة قادرة على تفسير الفهم التداولية للخطاب.

نماذج السياق الأنوية (egocentric). مثلها مثل باقي النماذج الذهنية، تبنى بناء ذاتياً حول نواة الذات كما هي متشكّلة على أساس تجاربنا الشخصية والاجتماعية في الذاكرة العرضية. ومن ثم، إذا كان تأويل الخطاب -كما اقترح ذلك ريكور وييل- "لقاءً مع الذات، فإننا في حاجة إلى تجاوز هذه الاستعارات، والعمل على التفصيل في كيفية تمثيل هذه الذات في النماذج الدلالية والتداولية التي تحدد التأويل.

## المقاصد

يعد تمثيل مقاصد أو أهداف المشاركين البعد الأهم لنماذج السياق، كما في حالة تمثيل الفعل في التفاعل وفي تحديد العديد من أنواع الخطاب. وقد منعت مدارس الأدب التقليدية (الفن من أجل الفن، والنقد الجديد، والهيرمينوطيقا) والعديد من المقاربات الشكلية (بما في ذلك: تحليل المحادثة، وعلم النفس الخطابية، إلى غير ذلك) الخوض في مقاصد المتكلم أو الكاتب؛ لأنهم يرونها تتجاوز حدود البحث الأكاديمي بناء على افتراضين: مضمون الأول منهما أن القراء والمحللين لا يستطيعون معرفة المقاصد، وأما الثاني فهو أنها لا تضيف شيئاً في عملية الفهم. وقد حدث شيء مشابه في المدرسة السلوكية التي منعت الاعتماد على اللسانيات في فهم المعنى. ولكن هذه المدارس كلها تجاهلت أن الناس لا يتوقفون في الاستعمال اليومي للغة عن محاولة فهم ما يعنيه المتكلمون أو الكاتب وما يقصدونه في نصهم أو حديثهم. وحتى حينما لا نعرف ما يقصده مستعملو

اللغة بالضبط، فإننا نستنبط من خطابهم استنتاجات معقولة حول تلك المقاصد، وهذا ما يسهل علينا فهم الآخرين في الحياة اليومية، وحينما يلتبس علينا فهم هذه المقاصد، قد نسأل المتكلم: "ماذا قصدت بكلامك؟"، و"ماذا تريد؟".

ويعد تصور "النص بذاته" -بوصفه موضوعا للدراسة في هذه الاتجاهات البحثية- أمرا في غاية الإشكالية. فعلى سبيل المثال، هل يشمل هذا المفهوم المعنى، وإن كنا نعلم أنه من الصعب سماع المعنى أو ملاحظته على صفحة ما، وأنه يُبنى بين المشاركين في هذه العملية (أي الكتاب والقراء). وعلى العموم، يرى الباحثون اليوم الخطاب بوصفه حدثا تواصليا مكتملا، أي: أنه نص متعدد الصيغ يحكمه سياق، وهذا يشمل بالطبع مقاصد الكاتب.

نخلص، إذا، إلى أن منع دراسة المقاصد في دراسة اللغة والخطاب -كما هي الحال في (بعض فروع) الدراسات الأدبية، والهيرمينوطيقا، ودراسات الخطاب- هو في الحقيقة خلل نظري ومنهجي واضح، واعتباطي، ومعباري؛ ومن ثم أيديولوجي. والدليل على ذلك هو أنه لا يأخذ بعين الاعتبار كيف نفهم الواقع. ووجب التنبيه هنا إلى أن قدرتنا على معرفة مقاصد المتكلم أو الكاتب أو عجزنا عن ذلك قضية منهجية أو عملية مختلفة تماما عن منع البحث فيها.

نحن نعرف من البحث المعرفي والعصبي أن البشر يمتلكون منذ سن مبكرة القدرة -ربما بناءً على "الخلية العصبية المرآتية"- على "قراءة الأذهان" أو الإحساس بالتعاطف مع مخاطبيهم، وأنهم يستعملون استراتيجيات فعالة لاستنباط مقاصد الآخرين في الفعل والتفاعل والمحادثة. وبهذا المعنى، يمكننا أن نقول إن الفهم التداولي للخطاب من المتلقين يركز بالأساس على فهم مقاصد المتكلم أو المؤلف (أو صياغتها).

وتتشابه النماذج الدلالية مع نماذج السياق في كون الأخيرة أيضا خاصة وشخصية وذاتية، وفي إمكانية اشتغالها على عناصر تقويمية وعاطفية؛ فالناس يملكون آراء أو عواطف حول الأحداث المتكلم عنها، وحول الناس في أثناء الحديث معهم، وحول الموقف التواصلية حال وقوعه. وفي الواقع، يعالج الإنسان المواقف التواصلية مثل أي تجربة أخرى في حياته اليومية، ولذلك فنحن قادرون على التعامل مع تعقيدها المعرفي والاجتماعي الكبير بالاستعمال الاستراتيجي للنماذج الذهنية.

تؤكد البحوث الحالية في علم النفس وفي علوم الأعصاب أن معرفتنا وتجاربنا،



ومن ثم نماذجنا الذهنية، "متجسدة" ومتعددة الصيغ. ومن ثم، فإن الكلام، والكتابة، والقراءة، والاستماع - وبصفة عامة التفاعل والتواصل- تشمل أبعادا بصرية وسمعية وحس-حركية، وعاطفية وفضائية، كما يحدث في جميع تجاربنا الاجتماعية. ومن ثم، ينبغي أن تحظى جميع هذه الأبعاد - بدرجات مختلفة وفي مستويات عديدة- بتمثيل في نماذجنا الدلالية للمواقف التي توصف ونماذج السياق التداولية للموقف التواصلية حال وقوعه. وعلى هذا النحو أيضا، يمكن تذكّر وتعيين المواقف التواصلية، كما يمكن صياغة الاستنتاجات حول مقاصد المتكلم أو الكاتب وسمات أخرى تخصهم.

تتأسس نماذج السياق التداولية أيضا -مثل النماذج الدلالية للموقف موضوع الحديث- على المعرفة (العادية) المشتركة اجتماعيا حول التواصل والأنواع والأساليب واستعمال اللغة، ومن ثم فإنها تسمح بخلق تواصل وتفاعل مفهوم وبيداتي. ولكننا لا نكتسب هذه المعرفة العامة من التعليم المباشر (التعليم المدرسي) فحسب، بل أيضا من التعميم والتجريد بفضل نماذج السياق، أي: من تجارب تواصلية وخطابية يومية.

وتعد نماذج السياق دينامية، حيث يمكن أن تتغير إحدى إعدادات السياق في أي نقطة أثناء الحديث وإنتاج النص وفهمه. ومن ثم، يمكن أن يتغير كذلك الخطاب وفهمه -كما يحدث تماما وباستمرار مع الزمن ومعرفتنا بالمشارك، فهذه أمور تتغير عادة بعد كل قول أو فعل كلامي.

وعلى الرغم من أن التفسير انطلاقا من نماذج السياق يضيف بعدا حاسما إلى نظريتنا المعرفية لإنتاج الخطاب وفهمه، ويقدم أساسا في غاية الوضوح للنظرية التداولية، فإننا لا نزال في حاجة إلى وصف وتفسير دقيقين لكيفية تمثيل مستعلمي اللغة لهذه النماذج وتعيينها باستمرار، ومعرفة طريقة تحكّم هذه النماذج في التعبير الفعلي عن النماذج الذهنية الدلالية التي ينبنى عليها إنتاج التمثيلات الدلالية للنص والحديث، وكذلك كيفية التعبير عنها في بنيات معجمية أو تركيبية أو صوتية أو بصرية أو بنيات أخرى متعددة الصيغ. وبالفعل، يمكننا القول إن النماذج الذهنية لا تتحكم في إنتاج ما يعد ملائما للقول (أو عدم القول) وقت الكلام فحسب، ولكن تتحكم بصفة خاصة في الكيفية التي يجب أن يعرض بها القول. ومن ثم، فإن هذه النماذج الذهنية قادرة على تفسير الأسلوب، والسجل، وأي استعمال آخر للموارد

اللفظية وغير اللفظية بحسب الموقف. وفي عبارة أخرى، تقدم نماذج السياق بعدا آخر لنظرية وصفية وتفسيرية مفصلة للفهم، بدلا من الممارسة المعيارية التي تعتمد على التعليق أو النقد لا غير.

نرى أن اعتماد نظرية أكثر وضوحا حول العميات والتمثيلات المعرفية التي تسهم في إنتاج الخطاب وفهمه يقدم قراءة أكثر تفصيلا ووضوحا، ويمكن البرهنة عليها تجريبيا في ما يخص ماهية الفهم والتأويل؛ أي: أنها لا تهتم بكيف ينبغي أن يجري التأويل أو الفهم بقدر ما تهتم بطريقة وقوعه بالفعل وعلى الدوام.

### السياقات الماكرو أو الكبرى

بعد هذا التقديم الموجز لمقاربتنا البديلة في فهم الخطاب، ومن ثم لمسألة الهيرمينوطيقا، بإمكاننا أن نتساءل: هل فاتنا بُعد حاسم آخر؟ إلى حدود الآن، قصرنا تفسيرنا على صياغة الموقف التواصلية، أي: على السياقات الاجتماعية الميكرو. ولكن المتكلمين والكتاب والمستمعين والقراء قد يربطون الخطاب الجاري بسياقات اجتماعية وسياسية أكبر، أي: بالسياقات الاجتماعية الماكرو. إن تجاهلنا للنقاش المعروف حول ما هو ميكرو وماكرو في علم الاجتماع (حيث يدرسون تقابل الفاعلية الفردية مع البنية الاجتماعية) يحتم علينا من جهة أن نفترض أن السياقات الماكرو هي مجموع الأجزاء التي تمثلها السياقات الميكرو، وأن هذه السياقات الماكرو (الممثلة) هي الصورة الكاملة التي ترسمها هذه الأجزاء مع بعضها البعض وتضفي انسجاما عاما عليها، ومن ثم تفسيرها إضافيا للسياقات الميكرو (المعقدة). وفي عبارة أخرى، هذا شبيه جدا بالعلاقة التي تربط البنيات الماكرو والبنيات الميكرو للخطاب.

ويكمن الاختلاف الفارق في التفسير السوسولوجي النظري للفاعلية والبنية في أن البنيات الاجتماعية الماكرو والميكرو لا تؤثر في إنتاج الخطاب وفهمه إلا عبر النماذج الذهنية (الذاتية والبيداتية) لمستعملي اللغة. وفي عبارة أخرى، تظل العلاقات بين الخطاب والمجتمع في حاجة دائمة إلى واجهة معرفية واجتماعية لمستعملي اللغة الفعليين.

ومن ثم، فإننا نخلص إلى أن مستعملي اللغة لا يمتلكون نماذج سياقية ميكرو فحسب، بل لديهم أيضا نماذج سياقية ماكرو. ولذلك قد يصوغ المتكلم الحوار



الجاري في الفصل الدراسي في المستوى الميكرو، ولكن في الآن نفسه قد يكون مستحضرا لدوره ووظيفته بوصفه أستاذا، ولمدى انسجام الحصة مع برنامج السنة الدراسية، وللأنشطة التي برمجتها الشعبة والجامعة بوصفها مؤسسة. وعلى المنوال نفسه، قد يقرأ شخص قصيدة أو رواية ويفهمها، وهو يربطها بموقف شخصي لشخص ما أو بموقف الكاتب، ويربطها أيضا بمعرفته بحقبة تاريخية أو أدبية معيَّنتين أو أسلوب أو لمسة فنية.

ولما كان كل واحد من المتكلمين والسامعين يمتلك نماذجه الخاصة للخطاب الحالي، فمن غير المستبعد أن يؤول السامعون الخطاب الجاري بطريقة مختلفة حينما يربطونه بنموذج سياق ماكرو مختلف. على سبيل المثال، نموذج الطالب الذي يرى الأساتذة والمؤسسات الجامعية بوصفهما يغسلان دماغ الطلبة أو يتلاعبان بهم، وقد يرتبط هذا النموذج بدوره بتجارب سابقة (نماذج قديمة) للسامع، فضلا عن المعرفة والأيدولوجيات المشتركة اجتماعيا.

ويتوسيعنا لنظرية السياق الحالي، استطعنا تفسير كيفية فهم مستلمي اللغة لخطاب سواء أكانوا أناسا عاديين أم نقادا أو محللين. ومن الواضح، أننا إذا أردنا إعادة بناء نماذج السياق التواصلية والاجتماعية للمؤلفين (ولا سيما أولئك الذين لم يعد لدينا سبيل للتواصل معهم)، بما في ذلك مقاصدهم ونماذجهم الدلالية التي تمثل معاني نصوصهم، فربما نحتاج إلى إنجاز دراسة تاريخية أو اجتماعية أو نفسية مركبة بالاعتماد - جزئيا - على ما تقدمه المدارس التقليدية في الفيلولوجيا والهيرمينوطيقا. ولكن، إذا أردنا دراسة كيفية فهم القراء الفعليين للخطاب، ومن ثم نوع النماذج الدلالية والتداولية التي يمثّلونها خلال القراءة أو الاستماع، فيمكننا استعمال ملاحظتنا الذاتية وبديهتنا كما هو الأمر في النقد الأدبي وكثير من الأعمال في الهيرمينوطيقا العملية، أو يمكننا إنجاز دراسة تجريبية، مثلا باستخدام مناهج من قبيل بروتوكولات التفكير بصوت مسموع، والتذكر، والتهيئة النفسية (priming) وإعادة الصياغة، والمقابلات، وما إلى ذلك.

### الهيرمينوطيقا ودراسات الخطاب

بعد ما تقدّم، يمكننا أن نقول إن بإمكان الهيرمينوطيقا - من وجهة نظري - أن تبقى في دراسات الخطاب المعاصرة، ولكن شريطة اعتمادها على نظرياتنا الحالية

التي يتم تحيينها باستمرار في تخصصات متعددة في ما يتعلق بتفسير عملية إنتاج الخطاب وفهمه. ونحن نعلم اليوم أن أنواعا متعددة من فهم الخطاب تشمل:

- المعالجة الاستراتيجية للنص والحديث في كل مستويات البنية.
- بناء وتحيين أنواع متعددة من النماذج الذهنية (الدلالية والتداولية)، المتأثرة بتنشيط نماذج قديمة (تجارب سابقة) تتميز بأنها تُبنى وتتغير ذاتيا في الذاكرة العاملة، وتُخزن في الذاكرة العرضية لمستعلمي اللغة، وأنها قائمة على معرفة اجتماعية عامة، وتمثيلات أخرى مشتركة اجتماعيا (مثلا: أعراف، وقيم، وأيديولوجيا).

إذا حدّنا حقل دراسات الخطاب المتعدد التخصصات بطريقة عامة، فإننا ندرج فيه أيضا البحث في الأدب، والنقد الأدبي، والبلاغة (وأجزاء من) السيميائيات، والكثير من الأبحاث في الخطاب في العلوم الاجتماعية والإنسانيات. ومن ثم، فمن الواضح أن الهيرمينوطيقا جزء من دراسات الخطاب (وهذا ليس محل خلاف، لأن دراسات الخطاب تتعامل مع ظواهر متعددة، وقضايا ومشكلات أكبر وأشمل من الهيرمينوطيقا). ويمكن أن تسهم الهيرمينوطيقا، بصفة خاصة، في فهمنا للخطاب التاريخي والأدبي، على سبيل المثال؛ وذلك بشرح إعدادات المواقف الاجتماعية والثقافية والتاريخية التي يمكن أن تؤثر في النص بناء على طرق تمثيل المؤلفين لهذه المواقف.

ومع ذلك، إذا ادّعت الهيرمينوطيقا تقديم نظرية ومنهجية لفهم مستعلمي اللغة للخطاب الفعلي، فلن يكون لها مستقبل إلا في إطار دراسات الخطاب الحديثة، وإلا إذا اعتمدت أنواع الأفكار النظرية والتجريبية التي تطورت خلال العقود الأخيرة. على سبيل المثال: ما يقدمه علم النفس المعرفي والاجتماعي لمعالجة الخطاب، وعلم الاجتماع، وأنتروبولوجيا النص والحديث.

ينبغي لنا ألا ننسى أن الفهم هو في نهاية المطاف فهم مستعلمي اللغة والفاعلين الاجتماعيين والأعضاء المنتمين للثقافة، وأنا في حاجة إلى العديد من التخصصات ونظرياتها ومناهجها وأفكار أخرى من أجل توضيح هذا النشاط البشري البالغ التعقيد، ولا شك أن هذا من الأهداف الأساسية لدراسات الخطاب الحديثة. وفي هذا الصدد، فقد تمكنت دراسات الخطاب اليوم من إنجاز العديد - إن لم نقل كل- المهمات التقليدية للهيرمينوطيقا، وأضافت المزيد من المهمات الجديدة، وهي مع ذلك تنجز ذلك بتصورات أكثر وضوحا (تنظير أقوى)، وتطبيق نسقي أمتن (مناهج مفصلة)، كما أنها أكثر تجذرا من الناحية التجريبية، ومبنية على الملاحظة والتجربة.

سأقدم بعض التعليقات الختامية على المقال الملهم لأن بيل بعد هذه الملاحظات العامة حول طبيعة الفهم والتأويل ودورهما في دراسات الخطاب المتعددة التخصصات والمعاصرة، وتخصصات أخرى.

التنوع: يظل لفت انتباه المجتمع الأكاديمي الدولي إلى أعمال الباحثين الحاليين أو السابقين ذا أهمية كبرى حينما تهمّشها الدول التي تصدر فيها أو التخصّص الذي تنتمي إليه، تماما كما حصل مع باختين والشكلانيين الروس وغيرهم من الباحثين. وعلى الرغم من أننا نعلم أن أعمال ريكور تُرجمت بشكل واسع وقُرئت في فرنسا ودول أخرى واقتُبست، ولا سيما في الدراسات الأدبية، والتاريخ، والعلوم الإنسانية الأخرى، إلا أن هذا الأمر لا ينطبق على كثير من دراسات الخطاب الحديثة. والأمر نفسه يصدق على الهيرمينوطيقا بوصفها توجها بحثيا يدرس الخطاب على نحو عام. ومن ثم، فمقالة ألان بيل، علاوة على التعليقات عليها في هذا العدد الخاص، أمر مرحب به لإغناء تنوع هذا الحقل، فنحن نتعلم دائما من هذه اللقاءات، حتى حينما نختلف مع مقترحاتها النظرية أو العملية، وذلك في أفق جعل مقاربتنا أكثر وضوحا.

تطوير التخصص: كما عبرنا عن ذلك سابقا وبإيجاز، لقد نضجت دراسات الخطاب الحديثة التي تتميز بتعدد التخصصات على مدى نصف قرن من الزمان، فأصبحت تضم نظريات ومناهج متطورة وقادرة على تفسير العديد من أبعاد النص والحديث في سياقهما، بما في ذلك كيفية فهمهما واستيعابهما. وقد تأثرت النظرية الأدبية الحديثة، ولا سيما الاتجاهات التجريبية منها، أيما تأثر بهذه التطورات (كما يتجلى ذلك في التطورات الأخيرة لمجلة الشعرية، المجلة الأولى التي سعدت بتأسيسها وتحريرها في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي). وإنني لا أدعي، مع ذلك، أن أفكارنا النظرية الحالية في فهم الخطاب تفسّر جميع مظاهر أو أبعاد هذا النشاط المعقد؛ إذ ما تزال بعض التفاصيل غامضة بالنسبة إلينا في كيفية فهم القراء لتعقيدات المحادثة اليومية (التي تبدو بسيطة)، من جهة، أو قصيدة حديثة من جهة أخرى. وأنا أميلُ إلى ما يقوله علماء النفس المعرفيين حول هذا النشاط، أي: أنه يشمل بناء نماذج ذهنية على أساس معرفة مشتركة اجتماعيا/ ثقافيا (بالإضافة إلى أيديولوجيات المجموعة). وقد بدأنا بالفعل في فهم أسس هذه العملية.

التعلم لا يتوقف: لقد كنت متحفظا وناقدا في ما سبق للمقاربات التقليدية والانطباعية والمعيارية في دراسة الأدب (ودافعت عن دراسة قائمة على نظرية واضحة ومنظمة وتجريبية لأي نوع من النص والحديث)، ولكن هذا لا يعني أننا لا يمكن أن نستفيد من المقاربات الأخرى للخطاب والأدب، علاوة على التأويلات التي يطورها كبار الباحثين (مثل أبعاد الخطاب وتأويلاته التي تجاهلناها في نماذجنا النظرية، ومثل دور السياقات المحلية والعالمية وصياغتها الشخصية في علم نفس معالجة الخطاب). والحق أن ريكور والباحثين البارزين الآخرين الذين على شاكلته قد أضافوا أفكارا قيمة حول عملية الفهم، وما زلنا في حاجة إلى الاستفادة منها بتطوير مصطلحات نظرية أكثر وضوحا، مثل طرق ربط القراء العاديين أو نقاد الأدب للنصوص بالسياقات الاجتماعية والسياسية والثقافية. ولعل السبب في ذلك هو أن علم النفس المعرفي لم يهتم كثيرا لحد الآن بدراسة دور السياقات الخاصة والعامة في فهم الخطاب دراسة مفصلة. ولذلك، كان عليه الاستفادة مما تقدمه نظريات السرد وحقل الأدب من أجل تفسير العلميات التي تسهم في إنتاج القصص وفهمها. ولا شك أن هذه الحاجة للاستفادة من المدارس التقليدية يصدق على العديد من الأبعاد الأخرى للخطاب التي لم تحظ بعناية كافية من علم النفس المعرفي لمعالجة الخطاب كما هو الحال بالنسبة إلى الأسلوب والبلاغة.

**التأويل مقابل التحقيق:** يمكن أن تستخدم مراحل التأويل الملخصة في استعارة القوس التأويلي، كما وصفها ريكور، لدراسة أنواع مختلفة من الفهم، ولكن بوصفه وظيفة متعددة الأنواع ومبنية على المعرفة القبليّة. ولكن تقديم فرضيات بناء على هذه الأشكال أو المراحل أو المستويات المختلفة للتأويل شيء، وتقديم (والتحقق من) تفسير مفصل للعلميات والتمثيلات الذهنية التي تسهم في هذه الطرق المختلفة لقراءة نص، والدور الذي تضطلع به المعرفة بالضبط في هذه الاختلافات التأويلية، شيء آخر تماما. وكما أن كتابة تأويل شخصي شيء جميل، وتطوير مناهج منظمة للتحليل يمكن تدريسها وتعليمها للتلاميذ شيء آخر (لأنها تجعل التحليل متاحا للجميع). ومن الواضح أن "المنهج" الاستعاري التالي الذي وصفه ريكور وأورده ألان بيل وفيسر، لا ينفذ في القسم أو في دراسة معينة:

أن نفهم يعني أن

نتواجه مع النص

حتى نكشف أو نعري

فحوى النص

(حتى يصير نصنا النص)

السياق؛ التأويل مقابل التفسير: مرة أخرى، يعدّ السياق شرطا أساسيا لتفسير هذا التنوع في الفهم، فقد يفتقر القارئ "الساذج" للتقارير الإخبارية أو القصائد لمعرفة الخبراء، ويختلف معهم في الأهداف والاهتمامات، ناهيك عن الفرق في الجهد والوقت اللذين يبذلهما الطرفان في القراءة ومحاولة الفهم. وهذه فروقات درس علم النفس المعرفي وعلم النفس التربوي بعضها. وبصفة عامة، تساعد المعرفة الغزيرة على الوصول إلى فهم "أفضل" (أي أكثر تفصيلا واكتمالا، إلى آخره). نقول هذا ونحن نعلم أن الخبراء يهملون أو تفوتهم بعض التفاصيل التي يلاحظها غيرهم في أثناء القراءة، ولعل السبب بالضبط هو افتراضهم بمعرفتهم المسبقة لتلك الأشياء التي يقرؤون عنها. وأيضا، من المهم التمييز بين عمليات فهم الخطاب العادية (اليومية أو التي تستلزم خبرة) التي تفسرها النماذج الذهنية الدلالية والتداولية للقراء من جهة، وبين تلك التي تقدم تفسيرا أكاديميا للنص أو الحديث التي تقوم، مثلا، على نظريات (نفسية-أو اجتماعية) لسانية أو معرفية أو اجتماعية أو تاريخية أو ثقافية من جهة أخرى. فالأولى هي تمثيلات ذهنية، والثانية هي خطابات أكاديمية تتضمن مصطلحات نظرية، وتحليلات، وحجاجا، إلى غير ذلك.

ما بعد الاستعارة: لقد تعلمنا من اللسانيات المعرفية ومن علم النفس أن الاستعارة أداة تصويرية قوية في فهم الحديث حول الحالات المجردة والمعقدة في الحياة اليومية. ولهذا السبب، حتى في العلوم، من قبيل علم الوراثة، تكثر الاستعارات، ولا سيما في سياقات التبسيط (مثلا "الشفرة" الوراثة، و"رموزها"، إلى غير ذلك). وتفيض أعمال ريكور -وأیضا مقدمة بيل- باستعارات لوصف مراحل متعددة من التأويل، كما ذكرناها بإيجاز سابقا: مواجهة النص، وكشف النص، وملكية النص، إلى آخره. وعلى الرغم من أن هذه الاستعارات تسمح لنا بربط، ومن ثم من تقريب المفاهيم المجردة، إلا أنها لا تنجز بأي حال من الأحوال مهمة البحث العلمي. وعلى المنوال نفسه، كما يجب تفسير "الشفرة" الجينية انطلاقا من بنية جزئية، فتحليل التأويل العادي أو العلمي للخطاب يحتاج إلى أن يكون محددًا ببنيات الخطاب في سياقها من جهة، وبالبنيات والعلميات الذهنية (وفيما بعد العصبية ربما) من جهة أخرى.

**التحليل (الأيدولوجي) النقدي:** ينبغي للتحليل النقدي للخطاب أن يتأسس على تحليل نسقي وواضح (أي: مبني على نظرية) لكل الأبعاد المهمة في النص والحديث في سياقهما. وقد يشمل هذا التحليل وصفا مفصلا للطبيعة الاجتماعية/السياسية للأيدولوجيات المؤثرة (مثلا العنصرية)، وكيف تؤثر في المواقف المشتركة اجتماعيا (مثلا: الهجرة) التي قد تتحكم بدورها في النماذج الذهنية لحوادث اجتماعية خاصة يمثلها أعضاء مجموعات أيدولوجية، وأخيرا البنيات المعبر عنها (التي تُسن أو تُجز) في النص والحديث، وكيفية تكييفها مع الموقف التواصلية. ومن الواضح، أن هذا نوع مختلف تماما من الممارسة والخطاب الأكاديميين بالمقارنة مع مجرد التعليق أو تقديم خطاب أيدولوجي مهما بلغت جمالية هذا الأخير.

والواقع يقول إن العديد من المقالات المقدمة إلى هذه المجلة تفعل ذلك بالضبط؛ أي: أنها مجرد تعليق أو إعادة صياغة مقتطفات من خطاب، ولذلك يُرفض نشرها. ومن ثم، لن أتوقف عن تأكيد أن التحليل النقدي للخطاب ليس منهجا للبحث في حد ذاته، بقدر ما هو حركة اجتماعية مكونة من محلي خطاب ملتزمين من الناحية الاجتماعية والسياسية، وأن هؤلاء يستعملون مناهج مختلفة وعديدة للتحليل لأغراض متعددة، مثل إبراز دور الخطاب في إعادة إنتاج سوء استخدام السلطة ونتائج هذه الأمر على اللامساواة الاجتماعية. كما أؤكد أن المقاربات الانطباعية في التحليل النقدي للخطاب لا ترقى أن تكون حتى تحليلا للخطاب، فما بالك بأن تحقق أهدافه النقدية والاجتماعية والسياسية.

### ملاحظة

لا يتضمن هذا التعليق العدد الكبير من المراجع الببليوغرافية الضرورية لدعم ما قيل في كل فقرة، ولربما أحيل على كتبي وأعمالي (التي يمكن قراءة الكثير منها في موقعي: [www.discourses.org](http://www.discourses.org)) حتى يطلع عليها من أراد المراجع المفصلة حول الموضوعات التي تناولتها في هذه المقال.

كان تون أ. فان دايك أستاذا لدراسات الخطاب في جامعة أمستردام إلى غاية 2004، وهو الآن أستاذ في جامعة بومبيو فابرا ببرشلونة. وبعد اشتغاله في البداية بالشعرية التوليدية، ونحو النص، وعلم نفس معالجة النص، اتخذ عمله منذ 1980 توجها نقديا أكبر، فتناول العنصرية الخطابية، والأخبار في الصحافة، والأيدولوجيا،



والمعرفة والسياق. وقد كتب مجموعة من الكتب في معظم هذه المجالات، وحرر دليل تحليل الخطاب (أربعة مجلدات، 1985)، وألف كتابا تعريفيا بدراسات الخطاب (يتألف من مجلدين في طبعة 1997 قبل أن يطبع من جديد في مجلد واحد سنة 2011)، علاوة على عمله على دليل دراسات الخطاب (خمسة مجلدات، 2007). وقد أسس ست مجلات دولية هي: الشعرية والنص (الآن النص والحديث)، والخطاب والمجتمع، ودراسات الخطاب، والخطاب والتواصل، ومجلة إلكترونية بالإسبانية سماها الخطاب والمجتمع ([www.dissoc.org](http://www.dissoc.org)). وما يزال لحد الآن محررا للمجلات الأربع الأخيرة. ومن آخر مؤلفاته الصادرة باللغة الإنجليزية "الأيدولوجيا" (1998)، و"العنصرية والخطاب في إسبانيا وأمريكا اللاتينية" (2005)، و"الخطاب والسياق" (2008)، و"المجتمع والخطاب" (2009). ومن آخر ما حرره من كتب: "العنصرية في القمة" (في عام 2000 بمعية روث فوداك (Ruth Wodak))، و"العنصرية والخطاب في أميركا اللاتينية" (في عام 2009). ويعمل حاليا على كتاب جديد حول الخطاب والمعرفة. وقد حصل على دكتورتين فخريتين، وحاضر في العديد من الدول، ولا سيما في أميركا اللاتينية، كما أسس بمعية أدريانا بوليفار (Adriana Bolivar) جمعية أميركا اللاتينية لدراسة الخطاب (the Asociación Latinoamericana de Estudios del Discurso) في عام 1995. ويمكن الاطلاع على لائحة أكثر تفصيلا بمنشوراته ومقالاته الحديثة، وموارد دراسات الخطاب ومعلومات أخرى على صفحته بالإنترنت: [www.discourses.org](http://www.discourses.org)، كما يمكن مراسلته على البريد الإلكتروني التالي: [vandijk@discourses.org](mailto:vandijk@discourses.org)

# مسرد المصطلحات المستعملة

## في علم المصطلح

وضعه دو بيسييه وآخرون

ترجمة د. منتصر أمين عبد الرحيم

وزارة التربية والتعليم، مصر

montaseramein@gmail.com

<https://orcid.org/0000-0003-2891-3808>

### الملخص

مع تزايد الاهتمام بعلم المصطلح والعمل المصطلحي تقدم هذه الورقة ترجمة عربية لمسرد مهم ثلاثي اللغة (إنجليزي - فرنسي - إسباني) عمل على بنائه ووضعته أربعة رواد من رواد علم المصطلح هم برنو دو بيسييه Bruno de Bess ونكونتي-ازيه Teresa Cabré وBlaise Nkwenti-Azeh وساجيه Juan C. Sager. ومعهم تريزا كابريرا Teresa Cabré التي تحققت من مصطلحاته في اللغة الإسبانية، وتتجلى أهمية هذا المسرد في ما أضفاه هؤلاء عليه من أهداف وخصائص بحيث لم يقتصر على مصطلحات علم المصطلح وحدها، بل عني بما يتصل بها من المجالات ذات الصلة بالدرس المصطلحي، وأرغب من وراء تقديم هذه الترجمة أن تكون دافعاً إلى مزيد اهتمام بمصطلحات هذا الحقل المهم وموردًا (قد) يستعان به على استيعاب مفاهيمه وضبط ألفاظه.

..

الكلمات المفتاحية: مصطلح، علم المصطلح، العمل المصطلحي، مسرد، مفاهيم، ترجمة.